

شعر

# ما لا يقوله الصمت

محمود سليمان الظاظا

ما لا يقوله الصمت

محمود سليمان الظاظا

شعر

الجزء الأول

1

دولة اليابان

أشعر أن دولة اليابان، بعد مرور ما يقارب المئة عام، ستقيم لي نصبًا تذكاريًا بوصفي شاعرًا عربيًا لبنانيًا عاش في بدايات الألفية الثالثة على هذه الكرة الأرضية.

وسيُكتب عليه:

"هنا يُخلد اسم محمود سليمان الظاظا، الشاعر الذي عبر الزمن بكلماته وقصائده."

2

جائزة نوبل للآداب

يبدو أنني سأفوز بجائزة نوبل للآداب،

لا بصفتي أعظم شاعرٍ عربيٍّ لبناني، بل بصفتي أسوأ شاعرٍ عربيٍّ لبناني

على سطح الكرة الأرضية كلها.

ومع ذلك، سأستقبل الخبر بابتسامة، فحتى الهزيمة أحيانًا تبحث عن طريقةٍ لتصبح قصيدة.

بن غفير

يبدو أن Itamar Ben-Gvir ينزعج من أصوات المآذن حين ترتفع في الفضاء الرحب للمدينة، ويتمنى - بحسب مواقفه المعلنة - أن يقيدّها أو يحدّ من حضورها الصوتي.

تُقرأ مواقفه عند كثيرين بوصفها تعبيراً عن نزعة متشددة وعنادٍ سياسي واضح، يثير الجدل في كل مرة يُطرح فيها على الساحة العامة.

ومع ذلك تبقى المدن أكبر من أن تُختزل في صوت واحد، وأوسع من أن تُحاصرها فكرة واحدة أو موقف عابر.

قصائد لبنانية قيّمة

دع الفكر يسير في مجراه الطبيعي، هادئاً، متزنّاً، بلا قسرٍ أو استعجال،

ولياًخذ مداه الواسع، الأرحب من حدود اللحظة واللغة،

كي تتولد القصائد اللبنانية القيّمة بسكينةٍ وطمأنينةٍ وهدوء.

لا تُثقل الفكر بما لا طاقة له عليه، ولا تدفعه إلى ما يتجاوز احتمالته،

ففي هذا الصفاء وحده تولد القصيدة الحقيقية،

وتترك أثرها العميق في النفوس وفي الأُفئدة.

يبدو أن مزاجي اليوم هادئٌ للغاية،

هادئٌ إلى حدِّ لا تُربكه زحمة السير الخانقة في الخارج، ولا تُعكّر صفوه أصوات المشادات بين سائقي سيارات الأجرة،  
ولا حتى ضجيج الدراجات النارية ولا حركة مؤزّعي الطلبات في الطرقات.  
إنه هدوءٌ عميق، يشبه هدوء البحر في صباحٍ صيفيٍّ ساكن،  
كأن العالم من حولي اختار أن يخفّض صوته، ويتركني في سلامي الداخلي.

6

أسوأ ما في الأمر

أسوأ ما في الأمر

أن تطرق قصيدةً حبِّ بابٍ إلهامك  
في لحظةٍ لا تحتل سوى الصمت،

وأنت تؤدّي واجب العزاء

بعزيزٍ رحل عن الدنيا.

تلتفتُ بلا قصد،

يمينًا نحو صفوف النساء،

فيخطف نظرك حضورُ شابةٍ كردية

من عائلةٍ مرموقة،

هادئة الملامح،

معتدلة القامة،

بيضاء الوجه،  
كستنائية الشعر،  
وسوداء العينين،  
تبدو في غاية الأناقة والرقي.

في لحظةٍ عابرة،  
يتحوّل المشهد كله  
إلى شرارةٍ كتابيةٍ لا تُقاوم،

فتتسلّل قصيدة حبّ  
إلى ذهنك دون استئذان،  
حتى في حضرة الحزن  
وترتيل القرآن الكريم على روح الفقيد.

وهكذا،  
بين الوقار والوداع،  
يُربكك الشعر أكثر مما يهدّئك،

كأنه لا يعرف حدود اللحظة،  
ولا يحترم توازن المشاعر.

فالشعر أحياناً  
شبحٌ متمرّد،  
غير منضبط،

يسحبك إلى أماكن  
كنت في غنى عنها،

ويتركك في مواجهة

ما لا تريد قوله

ولا كتماناه.

7

ما بوسعي

سأفعل ما بوسعي لأحافظ على موقعي كشاعرٍ بين الكتّاب الهواة، عربًا كانوا أم أجنب. وسأسعى أن أبقى حاضرًا، ولو في الصفوف الخلفية، دون أن أدّعي الصدارة أو أزاحم الوسط بلا يقين. فالأهم ألا أقصى تمامًا، وألا أغيب عن المشهد الأدبي الذي أعتبره مساحةً للتجربة والكتابة. وأقدّر كثيرًا المنصة الأدبية التي أتاحت لي نشر أفكارٍ وقصائدي وكتاباتي وكتبي بشكل مستمر ودون قيود تُذكر، فكان لها أثرٌ في استمرار هذا الصوت وفي وصوله إلى القراء. مع خالص التقدير والامتنان.

8

أيُّ صنفٍ من البشر أنا؟

يسعى كثيرٌ من الناس في الخارج إلى زيادة أرصدتهم المالية وتوسيع مداخيلهم الشهرية، بينما أنا منشغلٌ بتدوين قصائدي الوردية، وملاحقة ما يتسرّب من المعنى بين السطور.

فأيُّ صنفٍ من البشر أنا؟ وأين مكاني من الإعراب في هذا العالم الواسع؟

أنا خبِرٌ عابِرٌ في جملة الحياة، أم مبتدأٌ لم يكتمل بعد؟ أم فكرةٌ شاردة لا تجد نهايتها؟

9

أرغب في أن أتَنفَسَ هواء البحر، ذاك الهواء الذي يخفّف ثقل الروح ويعيد للصدر اتساعه.  
فهواء المدينة يبدو لي باهتًا، خانقًا، مائلًا إلى العتمة،  
كأنه فقد لونه، وتحوّل إلى ظلّ ثقيل يشبه الدخان أو الفحم.  
أما البحر، فله نفْسٌ آخر، نقيٌّ، يُشبهه بداية الأشياء حين تكون أكثر صدقًا.

10

### عبثًا يحاول

عبثًا يحاول العثور على الطريق المؤدي إلى قمة ذلك الجبل الشاهق،  
المكلّل بالغيمة، وبالسكون، وبضبابٍ أسود كثيف.  
عبثًا يتقدّم خطوةً بعد أخرى، في ظلّ انعدام الرؤية، وتلاشي المعالم تمامًا،  
إذ يبدو الطريق مفقودًا، والاتجاهات متشابهة، والنجاح نفسه كأنه غائبٌ خلف الضباب.

11

### الشاعر الأسوأ عالميًا

غدًا، إذا قرأ أحد النقاد قصائدي — نقاد الفكر والأدب والشعر — فسيصنّفني، حتمًا وحقًا، بأنني “الشاعر الأسوأ عالميًا”.

ولا بأس عليّ في ذلك، فالتصنيفات لا تغيّر جوهر المحاولة،  
ويكفيني شرف أنني كتبت، وأنني حاولت، وأنني لم أصمت.

12

ويجد شبح الشعر يسابقه إلى طاولة الكتابة بلهفةٍ وشوقٍ كبيرين،  
كما يسابق الموتُ المحتضِرَ إلى باب الجبانة.

13

لمسة سحرية

لك في كل قصيدةٍ تكتبها لمسةٌ سحرية، تسكن الحروف وتمنحها حياة،  
تجعل النصَّ أقرب إلى الروح، وأبعد عن الجمود.  
وفي كل سطرٍ تخطه يدك تتأكد أن فيك بذرة إبداعٍ حقيقية،  
تتجلّى بهدوء، وتكبر مع كل محاولة، حتى تصبح القصيدة أثرًا يبقى.

14

مدرجي الشعري

فكرتُ أيضًا بتدشين مدرجٍ واسعٍ للأفكار،

تهبط عليه قصائدٍ الجديدة بسلامٍ وأمانٍ وهدوء،

كأنها طيورٌ تعود من سفرٍ بعيد ولا تخشى الاصطدام بالعممة.

وسأسميه: مدرج محمود سليمان الظاظا الشعري،

مكانًا افتراضيًا تستقرُّ فيه الكلمات قبل أن تتحوّل إلى نصوص،

وتستعيد فيه الأفكار توازنها قبل أن تُعلن ولادتها على الورق.

سحر ساحر

لبنان بلدٌ يملك سحراً غريباً،  
 لكن خلف هذا السحر وجهٌ آخر مقلق؛  
 قد تجد نفسك فيه، في لحظةٍ واحدة،  
 تخسر كل ما تملك:  
 مقتنياتك، مدخراتك،  
 حصاد عمرك، وممتلكاتك،  
 كأن كل شيء يمكن أن يتبدد فجأة  
 بلا إنذار...  
 إنه مكانٌ ساحر، لكنه شديد القسوة في آنٍ واحد.

معجبٌ جدًّا بقصائدي

أنا معجبٌ جدًّا ا بقصائدي  
 كأعجابِ الكرزِ بحُمرته  
 والسماءِ الصافية بزرقته امتدادها  
 والبحرِ الهادي برغوته البيضاء  
 والكناريِّ بعذوبةِ صوته الشجي  
 وبالنهرِ حين يهمسُ بجداوله الرقراقة  
 وسنبلةِ القمحِ بذهبها الفاقع  
 وبالماسِ حين يتوهَّجُ في الضوء

والنجوم وهي تنهجي العتمة بريقها  
والقمر بابتسامته الخجلي  
والصفصاف حين يتمايل مع أنفاس الطبيعة  
كأنه يصغي لموسيقى الكون  
أنا معجبٌ جدًّا بقصائدي  
بتلك اللغة التي تشبهني  
وتحملني إلى أبعد من الحلم  
وأرجو أن أحظى يومًا  
بجائزة نوبل للآداب  
إن شاء الله تعالى

17

بسحرٍ ساحر

وبسحرٍ ساحر

تلاشت أكثر من عشرين قصيدة

وما يزيد

بكبسة زرٍّ خاطئة

اختفت دفعةً واحدة

كأنها لم تكن

كأن الكلمات

لم تمرّ من هنا يومًا

ولا تركت ظلّها على الورق

تبدّدت...

كما يتبدد الحلم عند الفجر

حين يفتح الضوء عينيه على الفراغ

إلى الفنان فضل شاكر

بُحَّةُ صوتِكَ الجميل  
تجعلُ كلماتِ قصيدتي  
تتراقصُ برِقَّةٍ ودلال  
فوقَ دفترِ أشعاري  
وتمنحُها تناغمًا وانسجامًا  
يكادُ يلامسُ المستحيل  
أملُ أن تبقى دائمًا  
في المقدمة  
وأن تُحسنَ اختيارَ كلماتِ أغنياتك  
بتمعّنٍ وهدوءٍ كبيرين  
كما في السابق  
حين كانت البساطةُ  
سرَّ المعنى  
وجمالَ التكرارِ حين لا يُستنزف  
هكذا...

يظلّ الفنُّ أصدق  
ويظلّ الصوتُ أعمقُ أثرًا

إلى محمود زين الدين

حاليًا...

أعتذرُ الآن

من جميع أصدقائي المقربين  
ومن بعض أفراد عائلتي الكريمة  
عن عدم حضوري حفلات الأعراس  
في هذا الوقت

تضامناً مع الجنوب الجريح  
وأهله النازحين

فلا أستطيع أن أرقص

على أنغام زياد برجي

ولا على صوت فضل شاكر

ولا أن أردد:

“تعى يا حبيبي خدني وروح”

فيما هناك من أبناء الجنوب

يُنزفون تحت النار

ولا أستطيع أن أقف على حلبة الفرح

بين الشابات والحسناوات

في لحظةٍ

تُهدم فيها البيوت فوق ساكنيها

تُسوّى فيها المنازل والمساجد

ومقامات الأنبياء

بالأرض

ولا أستطيع أن أصفّق للأغاني

بينما بلدي لبنان

ينزف في الجنوب

تحت استهدافٍ عنيفٍ ومجنون

عذراً...

لستُ في مزاج الفرح الآن

ومع ذلك

أبعث تهنئتي القلبية

إلى العرسان

وأتمنى لهم حياة مليئة بالخير والسلام

20

إبليس اللعين

حين يحضر إبليس اللعين في الشعر،

يحوّل القصيدة إلى مآيس حقيقية،

فيطمس معالم الحق،

ويمنح الباطل أسباب القوة والانتشار.

مآيس بحجم المؤامرات الكبرى

التي تُحاك سرّاً وعلناً

ضدّ وطننا العربي،

ومآيس تمتدُّ ظلّاتها

حتى تبدو بحجم الكرة الأرضية.

21

سماحة الشيخ يوسف الملا

نصّحتني سماحة الشيخ يوسف الملا، من جمعية المشاريع الخيرية الإسلامية، بألا أفسّر آيات القرآن الكريم من تلقاء نفسي، من غير تلقي العلم عن العلماء المختصين، حتى لو بدا تفسيري قريباً من المعنى الصحيح أو موافقاً له.

فالقرآن الكريم كتاب سماويّ مقدس، تُؤخذ معانيه وتفسيراته عن أهل العلم الراسخين، لا عمّا يمليه الحدس، أو الفكر، أو الشعور، أو الإحساس، مهما بدا ذلك موافقاً للمعنى المراد.

وهنا استوقفني قول أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه:

«أَيُّ سَمَاءٍ تُظَلُّنِي، وَأَيُّ أَرْضٍ تُقَلُّنِي، إِذَا قَلْتُ فِي كِتَابِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى مَا لَا أَعْلَمُ؟»

فتأملتُ في عظمة هذا الموقف، وتواضع هذا الصحابي الجليل أمام كلام الله تعالى.

فإذا كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول ذلك، فمن أكون أنا بجانبه؟

هكذا أدركتُ أن سلامة الفهم تبدأ من التواضع للعلم، والرجوع إلى أهله، والتوقف عند حدود ما نعلم.

22

من كان مصدقاً؟

من كان مصدقاً،

أو خطر له يوماً، ولو هنيهةً،

أن في داخلك كائناً نارياً غريباً

يتربص بطمأنينتك،

ويعكر صفو مزاجك،

ويخرب عليك حياتك،

وينغص عليك عيشتك؟

من كان يظن

أن ذلك المخلوق الناري المتخفي،

القاطن في زوايا النفس،

بوسعه أن يدفعك إلى التشاجر مع أصدقائك،

وأن يثير فيك الغضب والاضطراب،

وأن يوقعك فيما يضرّك ويؤذيك؟

من كان يصدق

أن هذا الكائن الخفي

قادر على كل ذلك،

من غير أن ترف له عين،

أو يتحرك له جفن،

أو يبدو عليه أثر لما يصنع؟

لا أحد...

لا أحد...

لا أحد على الإطلاق.

فكم من أذى يصنعه في الخفاء،

وكم من اضطراب يزرعه في النفوس،

دون أن يراه أحد أو يشعر بحضوره.

23

قصائد ذات قيمة

سأسعى إلى كتابة

قصائد ذات قيمة،

فكريًا وأدبيًا وشعريًا،

فقد أمضيتُ الكثير من الوقت

في كتابة بعض القصائد  
التي لم تكن لها قيمة تُذكر،  
ولا وزنٌ حقيقي،  
ولا قدرٌ يليق بالكلمة.

لذلك سأبحث عن الجديد،  
وأفكر فيما يستحق التقدير،  
وفيما يضيف فكرةً أو معنىً  
إلى القارئ الكريم.

وسأكون سعيدًا بذلك،  
ولو كان لي قارئٌ واحدٌ فقط،  
يعجبه فكري،  
ويتذوق قصائدي،  
ويجد في كتاباتي  
ما يستحق القراءة.

هكذا أريد للكلمة  
أن تكون ذات أثر،  
وللقصيدة  
أن تكون ذات قيمة.

يلوح في الأفق،  
وريحٌ شماليةٌ عاصفةٌ  
تكاد تقتلع الأشجارَ من جذورها،  
وتنزع رؤوس النخيل المعمّرة  
من أصولها الراسخة.

ريحٌ شماليةٌ هوجاء،  
تمتزج حمرتها بلون الدماء،  
عاصفةٌ، مدمرةٌ،  
مباغتةٌ في هجومها،  
كأنها تتآمر على كل ما يقف في طريقها،  
وتحمل في طياتها  
أسباب الخراب والهلاك.

وإزاء هذا الخطر المحقق،  
لا نملك إلا أن نرجو المولى عز وجل  
أن يجنبنا شرها المستطير،  
ويصرف عنا أذاها،  
ويحفظ البلاد والعباد  
من شرورها المتطايرة في الهواء.

شاعر أخوت

أنا شاعرٌ انفعاليٌّ إلى حدٍّ ما،  
قد أخسر أصدقاءً كثيرين

بسبب تصرفٍ مبالغت

يحدث في لحظة اندفاع.

وقد أحرق، من حيث لا أشعر،

الجسور التي بنيتها

على مهلٍ مع الآخرين،

كأنني أشعل سفني كلها

بعود ثقابٍ واحد.

هكذا أنا أحياناً؛

أسبقُ التفكيرَ بالعاطفة،

وأتركُ للانفعال

أن يقود الدفة.

أنا شاعر «أخوت» بالعامية،

أفرح بسرعة،

وأغضب بسرعة،

وأكتب ما أشعر به

قبل أن أزنه بميزان العقل.

لكنني ما زلت أتعلم

أن بعض الجسور

أجمل من أن تُحرق،

وأن بعض الأصدقاء

أثمن من أن نخسرهم

في لحظة انفعال.

## آخر الأفكار

ينتهي كتابُ الشعر  
عندما تجفُّ آخرُ الأفكار  
المتعلقة بعنوانه،  
وعندما يستنفد الموضوعُ  
ما يختزنه من رؤى وتأملات.

تجفُّ الأفكار شيئاً فشيئاً،  
حتى يصبح من العسير  
اجتراحُ فكرةٍ جديدة،  
أو العثورُ على قصيدةٍ أخرى  
تخطر على القلب  
وتستحق أن تُكتب.

عندها ينتهي الأمر،  
ويُطوى فصلُ الكتاب،  
ويُرسل إلى النشر،  
حاملاً ما وُلد فيه  
من خواطر وأحلام ومعاني.

ثم يبدأ انتظارٌ جديد،  
في ترقب ولادة عنوانٍ آخر،  
وكتابٍ جديد،  
يختزن في أعماقه

الكثير من الأسرار،

والأفكار،

ومضات الإلهام

التي تتوالد أثناء الرحلة،

وتبحث عن طريقها

إلى القصيدة.

هكذا تستمر الحكاية

بين نهاية كتابٍ

وبداية كتابٍ آخر.

27

أبوابها العريضة

عندما أكتب شعراً

في مدح الله سبحانه وتعالى،

أشعر أن رُوحِي تحلّق

في آفاقٍ من النور والإيمان.

وأحسُّ كأنني أطرق أبوابَ الملكوت،

راجياً رحمةَ الله ورضوانه،

ومتطلعاً إلى معاني القرب منه

بكل ما تحمله الكلمة الصادقة

من حبٍّ وتعظيمٍ وإجلال.

هكذا أجد في مدحه سبحانه

سعةً للنفس،  
ونورًا للقلب،  
وأملًا يفتح أمام الروح  
أبوابًا واسعةً من الطمأنينة.

28

مدح الباري سبحانه وتعالى

أفكر مليًا وجدّيًا  
في كتابة قصائد روحانية ونورانية  
في مدح الباري سبحانه وتعالى،

قصائد تتابع  
واحدةً تلو الأخرى،  
تحمل في كلماتها  
شيئًا من السكينة،  
ومعاني من التأمل،  
وإشراقًا من الإيمان.

29

شبح الشعر

أشعر أحيانًا أنني سأكفر بشبح الشعر،  
ذلك الشبح الذي يراودني بين الحين والآخر.

فهو يبدو لي  
كأنه موالٍ لإبليس اللعين  
ولأعوانه،  
يُربك الفكرة،  
ويبعثر المعنى،  
ويترك في الروح شيئاً من القلق والاضطراب.

30

مجد هذه الليلة

سأصنع مجدَ هذه الليلة  
أمام إطلالتك البهية،  
ابتسامتك الناعمة،  
وعطركِ الربيعي الرقيق الساحر.

سأصنع مجدَ هذه الليلة  
وأنتِ جالسةٌ أمامي،  
يفصل بيننا هذا اللوح الزجاجي  
الشفاف.

ليته لم يكن...

ليته ما كان.

سأصنع مجدَ هذه الليلة

بشوقي،

ولهفةٍ،

وَحَبُّ يَفِيضُ مِنَ الْقَلْبِ

دُونَ حُدُودٍ.

31

الصباحات الجميلة

كم أعشق الصباحات الجميلة،

وتلك البدايات المشرقة التي تمنح اليوم طمأنينةً ورغبةً في الحياة.

وأحبُّ البدايات الجيدة،

والعلاقات الودّية الهادئة التي تبعث في النفس راحةً وسلامًا.

وأحبُّ هذا الودّ الذي يجمعني بكِ،

يا هالة.

32

سماحة الشيخ يوسف الملا

أردتُ في السابق أن أفسّر آيةً من كتاب الله سبحانه وتعالى، القرآن الكريم، اعتمادًا على الفهم والعقل والمنطق، إلا أنني امتنعتُ عن ذلك.

33

لا يصلح للزواج

أشعر أحيانًا أنني لستُ مناسبًا لفكرة الزواج،

كما أن الزواج، في صورته التقليدية،

لا يبدو مناسبًا لي.

أنا رجلٌ تميلُ روحي إلى العلاقات العاطفية العابرة،  
وإلى الكلمات التي تتناثر كالشعر في الأوطان،  
تبحث عن لحظتها ثم تمضي.

هذه هي ملامح تجربتي كما أراها،  
دون ادعاءٍ أو لبس.

ولعلّ لكل إنسان طريقًا مختلفًا،  
ليس كل الطرق تقود إلى الشكل نفسه من الاستقرار،  
وليس كل القلوب خلقت لتسير في الاتجاه ذاته.

34

براكين متفجرة

براكينُ متفجّرة  
تشتعل في دفتر أشعاري،  
تفيض حممًا من الكلمات،  
وتتدفق بلا توقف.

يتمدّد مداها

حتى يبلغ أعلى قمم لبنان الشاهقة،  
كأنها نارٌ تصعد إلى السماء  
في لحظة اندفاعٍ شعريٍّ عارم.

إنها حممٌ بركانيةٌ  
من المعنى والإحساس،  
تعلو وتغلي  
في قلب القصيدة  
حتى تنفجر في الورق.